

المرأة الثورية في الرواية الجزائرية
لونجة والغول لـ: زهور ونيسي
- نموذج -

د/مفقوده صالح

قسم الأدب العربي

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

جامعة محمد خيضر - بسكرة

Résumé :

Cette étude traite le rapport entre la Révolution considérée comme un événement majeur dans l'Histoire de l'Algérie contemporaine et comme une source inépuisable pour le matière littéraire des écrivains, d'une part, et le roman algérien, d'autre part.

L'étude révèle la manière dont le roman s'est inspiré de la Révolution de l'héroïsme féminin.

L'accent est mis particulièrement sur le roman 'Loundja et L'ogre' de la romancière algérienne Z'hour Ouannissi qui reflète l'image de la femme révolutionnaire, comme l'article se réfère également à certains textes romanesques dans une perspective de compréhension et de synthèse.

تلخيص:

يعالج هذا الموضوع العلاقة بين الثورة الجزائرية باعتبارها حدثا بارزا في تاريخ الجزائر المعاصرة، ورافدا يستقي منه الأدباء مادتهم الإبداعية، وبين الأدب الروائي من جهة أخرى. ويكشف الموضوع مدى استفادة الرواية من الثورة في مجال تصوير بطولة المرأة، مركزا على رواية الأديبة الجزائرية زهور ونيسي "لونجة والغول" من خلال تقديم صورة للمرأة الثورية، مع الإشارة إلى أعمال روائية أخرى.

المقدمة:

عند تناول موضوع المرأة الثورية في الرواية الجزائرية، ينبغي التمييز بين أمرين هما: المرأة أثناء الثورة التحريرية، والمرأة الثورية، فالأولى لا تعني بالضرورة امتلاك المرأة للحس الثوري أو الروح الثورية، فقد تسهم في الثورة بغير وعي، وقد تتعرض للاضطهاد من طرف المستعمرين، أما المرأة الثورية فهي الواعية التي انخرطت في صفوف الثورة لتعمل مع المجاهدين، كما تعني المرأة الثورية كل امرأة ثائرة على الوضع حتى بعد الاستقلال، غير أن ما سينتظر له الموضوع يتعلق بالمرأة الثورية أثناء الثورة، تلك الفترة الحاسمة في تاريخ المرأة الجزائرية.

وبالرغم من أن ثورية المرأة الجزائرية لم تكن وليدة الثورة، بل كانت سابقة عنها إذ سجل التاريخ الجزائري أسماء عظيمة في تاريخ الجزائر منذ القديم، غير أن الثورة التحريرية كانت الحدث الاستثنائي الذي سمح للمرأة بالتحرر وإثبات الوجود.

ولقد استثمرت الرواية الجزائرية الثورة لتقديم صور عن المساهمة الفعالة للمرأة في الكفاح المسلح من خلال تقديم نماذج عن المرأة الثورية، بإضافة إلى الأسماء التاريخية التي أشارت إليها الرواية، فإنه يمكن الحديث عن بعض النماذج عن المرأة الثورية، ومن ذلك ما ورد في رواية لونجة والغول لزهور ونيسي وهو ما تتناوله هذه المقالة.

الثورة الجزائرية وتحرر المرأة

تعد الثورة الجزائرية الكبرى 1954-1962 فترة استثنائية في تاريخ المرأة الجزائرية حققت أثناءها حريتها وأثبتت وجودها، حتى أنه يمكن القول: بأن المرأة الجزائرية أثناء الثورة التحريرية كانت أكثر تحررا منها بعد الاستقلال، فالثورة لم تكن ضد المستعمر فحسب، بل كانت أيضا ضد الأفكار البالية التي تميز بين الذكر والأنثى في الإنسانية.

لقد كانت الثورة الجزائرية المسلحة بمثابة النفير العام، حيث هب الشعب للكفاح، كل بما يملك، وبما يستطيع، يتساوى في ذلك الذكور والإناث. تقول الباحثة عايدة أديب بامية: ((لقد برهنت الحرب حقا على أنها كانت الفترة الذهبية في تاريخ المرأة الجزائرية، إذ أنه في أعقاب اندلاع الثورة ظهرت تغيرات مفاجئة شاملة وبعيدة المدى في وضعية المرأة))⁽¹⁾

وعندما جاء الاستقلال وجدت المرأة نفسها تعود الفهقرى، وكأن الكفاح المسلح لم يكن إلا استثناء للقاعدة، ونشازا في مأساة طويلة تبدأ منذ ما قبل الاحتلال الفرنسي، لتستمر عبر الزمن، تصف الكاتبة جوليت منس هذه الفجاءة التي أصابت المرأة الجزائرية قائلة: ((أخيرا جاء الاستقلال "يوليو- تموز 1962م" وأعيدت النساء إلى بيوتهن، بعضهم بوجه عام الأصغر سنا كانت قد اعتقدت أن نضالها يمنحها حقوقا سرعان ما خاب أملها)) (ii)

أصبحت النساء بخيبة أمل بعد الاستقلال، لأن المجتمع عاد إلى صورته الأصلية التي تنظر للمرأة نظرة قصور ودونية، لكن المرأة التي أثبتت جدارتها أثناء الثورة ماكان لها أن تستسلم بسهولة، فقد تأثرت بالموقف التحرري، وظلت تطالب بحقوقها في التعليم والشغل والمشاركة في الحياة بصفة عامة.

والمرأة الثورية ليست وفقا على الثورة التحريرية الكبرى فحسب فهناك المرأة الثورية قبل الثورة: لالا فاطمة نسومر - لالا خديجة - الكاهنة - تينهان... الخ. وبعد الثورة استمر نضال المرأة.

ولكن الثورة التحريرية بالذات هي الفترة المشرفة في تاريخ المرأة، وهي الفترة المرجعية للأعمال الأدبية، وسأطرق للمرأة الثورية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية.

المرأة الثورية في الرواية الجزائرية

من خلال قراءتي للأعمال الروائية لم أجد رواية تقف وقفة متأنية عند هذه النقطة فتخصص رواية كاملة لبطلنة من بطلات الجزائر.

لقد أشار وطار مجرد إشارة إلى جميلة بوحيرد في روايته " اللاز الثانية " العشق والموت في الزمن الحراشي، جميلة بوحيرد بطلة كبيرة كما نعرف. ألقى عليها القبض عام 1957 عشية العثور على فرنسي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، وكان مقيدا بشجرة، وأفاد بأن أفراد عائلته قد قتلوا بأيدي ثوار، فتم اقتياد جميلة في ذلك اليوم للتحقيق، وكانت تحمل وثائق ورسائل ومبلغا ماليا، وثبت بعد التحقيق أنها سكرتيرة لقائد فدائيي الجزائر: ياسف سعدي، ونسبت إلى جميلة بوحيرد تهمة تفجير القنبلة الموقوتة

يوم 57/01/16. بأحد الملاهي حيث أصيب مايزيد على عشرين أوربيا هلك أغلبهم. (iii).
وحكمت المحكمة العسكرية على جميلة بالإعدام، ثم صدر حكم التخفيف إلى السجن المؤبد. وبتحرير البلاد تحررت جميلة، وصارت رمزا تغنى به أغلب الشعراء المعاصرين نذكر منهم: سليمان العيسى – نزار قباني – محمد الفيتوري – بدر شاكر السياب – نازك الملائكة. . . الخ. ومما قاله نزار قباني (iv)

((الاسم جميلة بوحيرد

رقم الزنزانة تسعون

في السجن الحربي بوهران

والعمر اثنان وعشرون

عينان كقنديلي معبد

والشعر العربي الأسود

كالصيف، كشلال الأحران)).

ومع هذه البطولة التاريخية، فإننا لانجد رواية واحدة تستثمر هذا الاسم، أو توظف هذا الرمز، هذه المرأة الأسطورة في تاريخ الجزائر. وإذا كنا لانجد رواية كاملة مخصصة لذلك، فإننا لانعدم الحديث عن المرأة الثورية، ولعل أهم النماذج المصورة للمرأة في الرواية هي:

□ – الحديث عن حياة مدرسة في رواية "من يوميات مدرسة حرة" لزهور ونيسي، حيث تصور هذه الرواية معلمة تعمل في حي "سلامبي"، وكانت منخرطة في العمل الثوري، وتلتقي بالمجاهدين، وهذه الرواية أقرب إلى السيرة الذاتية (v).

□ – المرأة الثورية، والعجوز خالتي البهجة في رواية "لونجة والغول" لزهور ونيسي.

□ – رحمة بنت الفحام في رواية الانفجار لمحمد مفلح.

□ – الطالبة الثورية في رواية مرزاق بقطاش البزاة. .

وإذن فإن أهم من تكلم عن المرأة الثورية زهور ونيسي، وسنقف عند نموذجين ثوريين في روايتها الأخيرة "لونجة والغول".

المرأة الثورية في رواية لونجة والغول

□ النموذج الأول:

ويتمثل في تلك المرأة التي تأتي إلى بيت مليكة ملتحفة بـ"حايك" أبيض، تلبس حذاء أسود دون كعب، تقول الكاتبة: ((وسرعان ما نزعنا الخمار عن وجه جميل، وشعر مقصوص أسود وفم مبتسم مجاملة)) (vi). هذه الأخيرة أخبرت مليكة بأنها (المرأة الثورية) أرملة شهيد، نفذ فيه حكم الإعدام بالمقصلة، غير أن التحاقها بصفوف الثوار ليس أخذاً بثأر زوجها فحسب بل هو ثأر عام، فقد استشهد أبوها وعمها في أحداث 1945 بخراطة، واستشهد جدها لأنها بثورة الزعاطشة بالجنوب، ومن ثمة فإن عملها هو كفاح من أجل الحق (vii). إن هذه المجاهدة تتصف بالمواسفات الآتية:

- 1 – تبدو خفيفة نشيطة، ذات شعر مقصوص، وحذاء لا كعب له، وهذا أخف وأسرع، وتبدو في زي نسوي عام حتى لا تعرف، كما أنها تحرص على عدم ذكر اسمها.
- 2 – أن هذه المجاهدة لا تعتبر أن ما تقوم به أمراً خارقاً للعادة، بل تعده أمراً طبيعياً، وتخبر هذه المجاهدة مليكة بأن الثورة عامة، والثوار أكثر لا يعرف بعضهم بعضاً، خلافاً لما تعتقده مليكة، كما تخبرها بأن في الجبل مجاهدات كثيرات.
- 3 – هذه المرأة واعية، شاعرة بالتاريخ الثوري لأسرتها خاصة، وللشعب الجزائري عامة، فهدفها من الكفاح الوطني، ولا يعود لأسباب شخصية.
- 4 – أن هذه الفدائية شاركت في إحدى العمليات قبل التحاقها بالجبل، وهذا الشرط كان لازماً لمن يلتحق بالثورة.

□ النموذج الثاني:

يتمثل في "خالتي البهجة" وهي امرأة طالق كانت تعمل في حمام الحي، ثم صارت إضافة إلى ذلك تعمل لصالح الثورة.

تزر "خالتي البهجة" بيت مليكة ثلاث مرات في الرواية:

- 1 – في المرة الأولى: أتت البهجة إلى مليكة وطمأننتها أنها ستأتيها بمعلومات عن الزوج الغائب، ومن خلال الزيارة نتعرف على بعض الجوانب في شخصية "البهجة".
- 2 – وتأتي في المرة الثانية محزونة مهمومة لتخبر مليكة (الحامل) وفي شهرها التاسع بوفاة زوجها، ولتؤكد لها بأنه لا مجال للشك، فالمجاهدون متأكدون، تقول: ((إن هؤلاء الناس لا يعيدون الكلمة مرتين)) (viii).

وأخبرتها بأنها ستتقاضى منحة مالية بعد أيام قلائل: ((يرسلها لها المجاهدون مثلها في ذلك مثل عائلات الشهداء جميعا)) (x).

3 – أما في المرة الثالثة فلا تأتي العجوز بمعلومات وأخبار حاسمة، وتكاد الكاتبة أن تخصص هذه الزيارة لتقديم البهجة نفسها لمليكة، ومن خلالها للقراء، فتتحدث عن جمالها الفتان عندما كانت صغيرة، كما تتكلم عن حظها التعيس في عدم الإنجاب، فقد كانت عقيما مما سبب لها الطلاق مرتين، وأثناء الحكي تتوقف البهجة، وتدندن بلحن حزين قائلة:

الجندي خويا
تشوفك فرانسا
ماتعديش علي
وتقتلك بالغدرة
الجندي خويا (x).

يتبين من خلال زيارة العجوز البهجة لببيت مليكة أن هذه العجوز انخرطت في الثورة في البداية بدون استيعابها لذلك، إذ استغلها رجال النظام لفائدة الثورة، نظرا لامتلاكها موهبة نشر الأخبار والدعاية وقد وجدت رغبة في هذا التسخير، بل وحققت نجاحا مما أهلها لأن تصير ((عضوا دائما في المقاومة، وعندها أوراق وشهادات تثبت ذلك)) (xi). ونجاحها هذا يدل من جهة أخرى على قدرة الثوار على تقييم الناس ومعرفة استخدام الشخص في المكان والوظيفة المناسبة له، كما أن البهجة لم تبق مجرد وسيلة دعائية بلهاء، بل تحولت إلى مناضلة حقيقية بدليل أنها كانت تعرف كثيرا من الأمور، غير أنها تدعي عدم المعرفة (xii).

وبذلك فالعجوز تشترك مع المرأة الأولى في بعض الصفات وتختلف عنها في صفات أخرى، فمن أوجه التشابه بين المرأتين أن كلا منهما غير مرتبطة أسريا، فالأولى أرملة شهيد، والعجوز البهجة مطلقة، مما يساعدهما على القيام بالمهمة الثورية، وهذه الخاصية استخدمتها الرواية كثيرا في وصف المرأة المجاهدة، كما أن هذين النموذجين استخدمتا لجلب الأخبار المتعلقة بالمجاهدين، فمهمتهما اتصالية، وهناك أوجه خلاف بين الاثنتين أهمها:

1 – أن المرأة الأولى مجاهدة حقيقية متفرغة للجهاد، وعلى اتصال مباشر بالمجاهدين، بينما البهجة تقوم بوسائل الدعاية إلى جانب عملها اليومي بالحمام، وتحقق المرأتان بذلك تكاملا في العمل الثوري.

2 – أن الأولى تبدو خفيفة نشيطة، تتسم بطابع السرية، في حين نجد الثانية عكس ذلك، فهي شعبية معروفة لدى الجميع.

3 – أن المرأة الأولى تبدو أكثر وعيا وفهما للوضع، في حين أن العجوز لاتعرف المجاهدين، بل تحكي عنهم أخبارا شبه أسطورية، فتصورهم كالملائكة.

ومن خلال هذين النموذجين يتبين الدور الفعال والحاسم الذي قامت به المرأة أثناء الثورة في مجال الكفاح إلى جانب الرجل، والعمل في الجانب الدعائي والإعلامي داخل أوساط الشعب. غير أن زهور ونيسي شأنها في ذلك شأن الكتاب الآخرين تعتبر قيام المرأة بالثورة تضحية بالنفس، أو تعويضا عن نقص لدى المرأة (ترملة – تطلق). صحيح أن المرأة الأولى أكدت لمليكة أنها تدافع من أجل تحرير الوطن، وليس أخذا لثأر شخص معين، ومع ذلك يبقى اختيار المرأة المترملة أو المطلقة للعمل الثوري هو الغالب، إذ لم نجد امرأة تحارب إلى جانب زوجها في الجبل رغم وجود ذلك تاريخيا.

الخلاصة

والخلاصة أن الثورة الجزائرية كانت حدثا عظيما في تاريخ الجزائر المعاصرة، وبالرغم من استثمار الإنشاء الروائي لهذا الحدث التاريخي إلا أن الرواية لم تكن في مستوى الحدث وبقيت قاصرة عن تصوير واستلهاام الثورة للحديث عن حرية المرأة. وكنموذج عن المرأة الثورية نجد ما قدمته الأدبية زهور ونيسي في روايتها لونجة والغول التي عرضت فيها نموذجين عن المرأة نموذج المرأة الثورية الواعية المتعلمة، ونموذج المرأة الأمية التي تستثمر الثورة مواهبها وظروفها لخدمة الثورة ونشرها في الأوساط الشعبية.

الهوامش:

i – بامية عايدة أديب : تطور الأدب القصصي الجزائري(1925- 1967) تر : د . محمد صقر. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. ص 205.

ii – منس جوليت : المرأة في العالم العربي، تر: إلياس مرقص، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت . 1981. ص 102.

-
- iii - العسلي بسام : المجاهدة الجزائرية، والإرهاب الاستعماري، دار النفائس، بيروت .
1984. ص 137 - 138.
- iv - قباني نزار: الأعمال السياسية الكاملة ج 3. منشورات نزار قباني، بيروت، ط 3.1982.
ص 51
- v - ونيسي زهور : من يوميات مدرسة حرة . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر .
1979
- vi - ونيسي زهور : لونجة والغول، مطبعة دحلب . حسين داي، الجزائر 1983. ص 78.
- vii - المصدر السابق. ص 121
- viii - نفسه. ص 120
- ix - نفسه. ص 71
- x - نفسه. ص 121
- xi - نفسه ص 120
- xii - نفسه. ص 71